بقايــا... !



بقلم: عبد الله لالي

بقايـــا... !

اتّكأ على عمود إشارة المرور القريب من الموقف.. كانت السّنين قد هدّته هدّا ..وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا، لم يعد ذلك الفتى القويّ مفتولَ العضلات الذي ترهب صولاته الرّجال..

كان ينظر إلى المدينة وقد تسربلت بهالة من التطوّر الباهت الذي طمس معالم الأصالة العميقة، وأخذ يَزيّن للنّاس كمثل الدّجال يريهم النّارَ جنّةً والجنّة نارا، ويُحي الموتى ليقول لهم مثلما قال صاحبه من قبل:

" أنا ربّكم الأعلى .."

كانت الحافلات تأتي مكتظّة وسيّارات الأجرة لا تنقطع عن الانزلاق في شوارع المدينة جيئة وذهابا، والنّاس مثل جيوش النّمل لا يكفّون عن الحركة الدائبة، لكنّها حركة باهتة ومشّوشة، ما فتئ في كلّ حين يحاول خفض رأسه لكثرة ما يرى من مناظر النساء المبتذلات، في زينة لم يخطر بباله أن

يراها يوما معروضة في الشوارع، ومبتذلة مثل السّلع الرخيصة..خفض رأسه مرارا حياء ورهبة وهو الذي لم يألف من نفسه خفض رأسه قطّ..

تذكّر علجيّة التي لم يتفرّس ملامح وجهها بدّقة إلاّ ليلة الزفاف، وكانت لا تعدو في الزينة زينة الكحل والمسواك، غير أنّها كانت عنده أكثر فتنة من الشمس والقمر، وأين منها هذه النجوم الباهتة التي تروح وتغدو قريبا منه تزاحم الرّجال وهي في حلل تغري الشيطان نفسه، لكنها تخفي خلفها جمالا كجمال (نوار الدفلة في الواد عامل الضلايل) ..هكذا حفظ منذ الصغر وأثبتت له ال.مدينة ومحطّات الحافلات، وأضواء الحضارة الزائفة؛ صدق هذه الحكمة البليغة..

لفت انتباهه وقوف امرأة خمسينيّة قريبا منه في المحطّة وبجانبها فتاة صغيرة لم تجاوز السّادس عشرة، لكنّها في تبرّجها المقيت بدت أكثر من سنّها بكثير، خفض رأسه مرّة أخرى وهو يتأفّف، كانت الحافلات تأتي غاصّة بالبشر المتعبين والقلقين تضطرم صدورهم بالآهات، فآثر الانتظار حتى يجد حافلة متخفّفة من أثقال المدينة بعض الشيء.

هدرت فجأة درّاجة نارية لشابين غريبي الشّكل.. نظر إليهما بقرف شعورهما النافرة إلى أعلى وشكل لباسهما جعله يمقتهما مقتا شديدا من أوّل لحظة، تفلَ على الأرض بشراسة وقفزت إلى قلبه نبضات الماضي البعيد، حيث يغلي الدم في عروقه وتهتز عضلاته لأدنى تحدٍ أو استفزاز.. كانت عصاه لا تهدأ من مصاولة الفحول، أمّا هؤلاء الخنافيس فتكفيهم بسقة.. !

تذكّر عضلاته المرتخية وقلبه الواهن وسنيَ عمره السّبعين التي تنذر بالرّحيل في أيّة لحظة، لقد صار اليوم نديما للموت يتخايل له في كلّ مرّة يضع فيها رأسه على الوِساد، ويشعر أنّ كلّ خليّة فيه تريد أن تنام.. تنام وإلى الأبد.. عركته السّنين وحنّكته التجارب ..ولكنّها أخذت منه مبتغاها فصار ينظر إلى الماضي وكأنّه حلمٌ ورديّ انقضى بغير رجعة..

هدرت الدرّاجة مرّة ثانية وطاف بها الشّابان في شكل استعراضي حول المحطّة، وبدا أنهما يتحرّشان بالمرأتين.. شعر السّبعينيّ بالاستفزاز ثانية أبت له رجولته أن يقف صامتا مكتوف اليدين كانت عصاه إلى جنبه كأنّها تستند هي الأخرى إلى عمود الإشارة.. نظر مِن حوله عساه يرى شهما يتقدّم من الشّابين ويوقفَهما عند حدّهما.. ارتدّ إليه البصر حسيرا..

نزل الشابّان من الدّراجة وراحا يقتربان من المرأة وابنتها، في حركة عدوانيّة معلنة.. انكمشت المرأة على نفسها وهي تحضُن ابنتَها بشدّة وفي عينيها فزع رهيب، دنا منها أحد الشابين وقال بتبجح:

- هات الهاتف وما معك من ذهب ونقود إن كنت مبقية على حياتك وحياة ابنتك..

وأخرج من تحت قميصه سيفا صغيرا كأنّما هو يقبل على معركة الشرف والبطولة، صرخت الفتاة الصغيرة برعب واستغاثت بمن كان في المحطّة..كان الشاب الثاني يمسك ساطورا ويلّوح به في الهواء مشيرا لمن حوله، لم يفعل أحد من جمهور المنتظرين في المحطّة سوى أنّهم تباعدوا عن المكان بضعة أمتار.. لوّح أحدهم لسيّارة أجرة وركبها، وتظاهر ثان بأنّه يريد الدّخول إلى محلّ قريب للهواتف وبقي الآخرون ينظرون من بعيد في ذهول..

سحبت المرأة هاتفها وبعض النقود وبعض الخواتم التي كانت ترتديها هي وابنتها ومدّت بها يدها للشاب الأوّل وهي تستعطفه أن يأخذ كلّ شيء ويذهب بسلام، كانت تشتري حياتها وحياة ابنتها في زمن توحّش فيه النّاس وبرزت لهم أنياب ومخالب ..

لم يحتمل الشيخ السّبعيني الموقف كانت الأَنَفَة تهيج بداخله وبقايا رجولة مستوفزة تمور مثل البركان، تمنى أن يرى من حوله رجالا ذوي شهامة يشبعون هذين الشابين المغرورين ضربا، وينتصرون للمرأتين ولكن لم ير من حوله أحدا، أبت عليه رجولته إلاّ أن يستذكر زمن الفتوّة ويبعث الأسد الذي نام بصدره، شدّ قبضته على عصاه التي لم تكن لتفارقه يوما، وهزّ بها في الهواء وزمجر مثل الأسد..

لم يصدّق الشابّان نفسيهما.. هل هذه هي المدينة التي تُرعَد رعبا وفزعا من صولاتهما، كانت ضربات العصا تنهال عليهما في لمح البصر مثل الصواعق النازلة، حاول الأوّل أن يردّ بالسّيف إلاّ أنّ ضربة قاصمة طوحت بسيفه وبذراعه معا، فلم يعد يشعر بها.. حاول استخدام يده الأخرى، فجاءته ضربة على الرأس ألقت به أرضا وبلا حراك، تقدّم الثاني بشيء من الشّجاعة الزائفة لينقذ رفيقه فلم يشعر إلاّ والدّمَ يُسربل وجهه والدنيا تغيم في عينيه..وبصعوبة بالغة انسلّ هاربا ليذوب في الشوراع الجانبيّة للمدينة..

أحسّ السّبعيني ببقايا رجولة تزمجر في حنايا صدره .. فتل شاربه المبيَضِّ شيبا، وبصق ثانية على الأرض وهو ينظر إلى المدينة الغارقة في الأوحال..

الجُمّـار..!

قال أبي:

- هذه ريح شديدة ..سيسقط كثير من النّخل (الهرم) اللّيلة.. ثمّ

سكت لحظة؛ ليفترّ ثغره عن ابتسامة عذبة، ثمّ استدرك:

- ولكن لا بأس.. سنأكل غدا الجمّار بترف..

انطبعت هذه الكلمة الجديدة في ذهني بشكل استفزازي وكأنّي عثرت بطلسم جديد من طلاسم الحياة التي ينبغي أن أفكّ أقفالها العصيّة، بمفتاح الأسئلة السّحريّ، قلت:

- وما هو الجمّار يا أبي!!

مسح على رأسي في لطف وقال:

- إن شاء الله غدا ستعرف، فقط تمنّ+
- على الله أن لا تسقط إحدى النّخلات على حقل الخضار الذي تعبت في تهيئته مدّة طويلة، وآمل أن أجنيَ منه محصولا معتبرا هذا الموسم.

* * *

ظننتني في الصباح أول المستيقظين، لكن ما إن فركت عينيّ بأصابعي حتى سمعت طرقا شديدا على الباب الخشبي، المصنوع من خشب النخيل وليس من خشب (البقنون) الصّقيل المستوي واللمّاع، الذي رأيت الأبواب تصنع منه في المدينة، عندما نزور عمتي في الأعياد والمناسبات.

كانت تلك هي عادة أبي في طرق الباب، وعادة كثير من رجال القرية في الماضي، قالت أمّي:

- أسرع وافتح الباب .. فقد عاد أبوك..

اندفعت مسرعا لأفتح له الباب، وفي ذهني أسئلة عدّة تتدافع في قلق وحيرة (متى استيقظ أبي ؟ وكيف خرج ولم أشعر به ؟ ترى هل وجد الجمّار ؟ وهل سقط كثير من النخل البارحة ؟ وهل كفت الرّيح عن العصف ...؟)

اتّقيت – وأنا أفتح الباب – دفقة الضوء الذي انصبّ شلاّلا على وجهي، ولم أستبن ملامح أبي جيّدا لوهلة من الزمن، سمعته يقول والبِشر يُنغّم نبرات صوته:

- هيّا بنا ...اليوم ستشبع من الجمّار..
واتجه إلى زاوية في البيت، نلقي فيها بأدوات الفلاحة وأخذ فأسا ومنشارا خشبيّا، وعددا من الأزاميل، وكيسا صغيرا فارغا دفعه إليّ لأحمله، ثمّ خرج مندفعا كأنما تجذبه ريح البارحة إلى ساحة الأفراح والبهجة، وأنا على أثره أقفز مثل غزال شموس..كان أبي ابنَ الطبيعة البكر يتمازج معها حدّ الذّبوان أو التّماهي..

تجاوزنا ثلاثة بساتين -كانت كلّها تحت رعاية أبي- قبل أن نصل إلى المكان المطلوب ...وإذ بي أراها؛ نخلة عجوزا ممددة على الأرض النديّة مثل عملاق مدهش خانته قدماه، فهوى إلى الأرض بلا حراك..

الجريد الأخضر يكلّل جزءها الأعلى، بينما انفرش الباقي منه على الأرض تحت جزئها السفليّ ..مدّ أبي يده إلى المنشار بعد أن وضع بقيّة الأدوات جانبا، وجعل يقطع عنها الجريد من أصوله، وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى جرّدها من تاجها الأخضر كلّه، فصارت عارية تماما مثل ملك فقد عرشه ووقع تحت رحمة أعدائه.

انذهلت لهذا المنظر العجيب الذي آل إليه حالها، واستبدّ بي الفضول فدرت من حولها بحثا عن الجمّار؛ الذي لم أره في حياتي قط، حياتي التي لم تتجاوز الثامنة بعد، لكنّها بدت لي كأنّها دهر ممتدّ بلا نهاية، وحسبتُني كنت في الدنيا من آماد طويلة، لا أعرف متى لم أكن فيها فكيف لا أعرف هذا الذي يسمّى (الجمّار).

لم أر شيئا ..إلى أن شدّ انتباهي لون سعف الجريد بقلب النخلة (كما يسمّي أهل الواحات وسط رأس النخلة)، وكان أبي يقطعه ويضعه جانبا بعناية، فقلت في فضول:

- هذا هو الجمّار يا أبي..؟

فقهقه ملء شدقيه وأخذ الفأس ثم وضعها بين رجليه، ثمّ تفل في كفيه شيئا يسيرا ومسح بعضهما ببعض، ليأخذ الفأس مجدّدا ثمّ ضرب به رأس النخلة ليشقّه به، وهو يقول:

رويدك لا تستعجل ..! سوف ترى الجمّار بعد قليل، أمّا هذا الذي وضعته جانبا فهو سعف أصفر، نصنع منه القفاف والحُصر والمظلات التي تقينا حرّ الشمس في الصيف !

وبدأ قلب النخلة ينشقُّ شيئا فشيئا، وأبي في كلّ مرّة يجرّده من اللّيف و(الكرناف) وكلّ ما يحيط به من السطح حتى اللّب، إلى أن تبدّى اللّب ظاهرا، فاقتطع من أعلاه قطعة، رمى بها إليّ وقال:

- تذوّق ...

كان أبيض مثل زبدة الماعز على جوانبه خطوط بنيّة اللّون وكان طريّا جدّا، له نكهة مختلفة وطعم جديد على مذاقي، فأخذت أقضم من تلك القطعة في حذر بادئ الأمر..ثمّ لما استمرأتها، التهمتها التهاما.

وما كدت أنتهي حتى رأيت أبي يستخرج اللّب الصافي، الذي لا تشوبه شائبة .. كان ذلك هو " الجمّار" الحقيقيّ ..قطعة واحدة ناصعة البياض ملساء، فاقتطع لي منها جزءا صغيرا وقال:

- خذ هذا هو " الجمّار " الذي حدثتك عنه أمّا الأوّل فكان القشور وحسب ..

تذوّق الآن وقل لي ما رأيك..

لقد أسكرني مذاقه ورحت أعبّر عن نشوة هذا الاكتشاف الجديد في حياتي الصغيرة (الكبيرة)، بقفزات فوق جذع النخلة الممدّد في كبرياء ، وقلت بمرح:

رائع هذا الجمّار... رائع جدّا يا أبي..

ليتَ الريحَ تهبّ كلَّ ليلة ..

فضحك أبي من أعماق قلبه وقال:

- إذا لن تذوق (الجمّار) بعدها أبدا..!

النفط هذا السَّامريّ...

نبوءة مبكرة:

المدينة ترجف بخبر مهول .. والصِّبية في الشوارع يصرخون وعلى وجوههم علامات استفهام لا تحصى:

– النفط في الآبار.. غار .. وحقول الغاز اختفت ..

أعولَ ذو كرش كبير:

– النفط في الآ.. با .. ر .. غا.. ر.

وسقط عقاله والغليون ثم سقط خلفه بسكتة قلبية .. مدينة الضباب الأبدي فقدت أحد فرسان لياليها المغاوير...واه لغدرات الزمن.. عصبة الحل والعقد في بلاد ما بين "**الحقلين الأسودين**" انتفضت في جنون، وأرسلت على عجل من يتقصّى نبضات اللّص المجنون الذي خبأ مفاتيح مغارة الأحلام في عين الشمس الحمئة ..

العجائز صبغن شعورهن بحناء "**زريبية**"[1] منتقاة ونفضن الغبار عن المناول القديمة، وسرى في عروقهن دم طالما بعث الحياة في البرانس البيضاء والسرج النموشية[2].

الشيوخ أشاروا بأيد خشنة كأنها قُدّت من أديم الأرض، إلى حقول القمح المهجورة وقالوا بصوت أسطوري:

– الحلّ هناك .. في لحظة اسمرار الزنود تنبت الأمواج الخضراء، لتغسل دَرَن السّنين العجاف ولطخات الغنى "الأسود" الكذوب .

الشعراء.. الغاوون:

– انطفأت أضواء المدينة وهدأ الضجيج ..انسربت زرافات الشعراء تبحث عن المخرج في أودية "**الجن**"..

قال قائل منهم :

– هذا الحلم غريب ... زبدة في شمس النهار تذوب ..

---

[1] **- نسبة إلى قرية ببسكرة .**

[2] **- نسبة إلى النمامشة ، فرع من الأمازيغ .**

انتفض ثان بصوت مبحوح:

- بل هو كابوس رهيب .. وغشية النوم العميق وحدها السبيل.. هلمّوا نرقد عند سدرة الوادي الخرافية لعلنا نلهم بقصائد اليوم الجديد.

زعق ثالث وقد أتعبه طول انتظار:

- كذبتم يا دجّالين وما أحطتم من الأمر خبرا، سر الخلاص في ملك جديد يرفع عنا الأغلال، ويرسل حناجرنا ببركاته تصدح بالماء الزلال.

أما غَيبيهم فقد نادى من بعيد :

- نحن أهلك الناس يا أغوى الناس .. فعندي للكلام سوق جديد و"إخشيد" جديد، أحوّل له لون القار إلى عجل ذهبي له خوار.

تردّدت بين حنايا الوادي قعقعة سيوف صقيلة، وحمحمة خيول عتاق.. نكس الشعراء رؤوسهم وخنسوا بين فجاج الوادي الكبير، يستطلعون جلية الأمر المريب وصدورهم تكاد تنقصف من وجف القلوب.

كانت كوكبة من حاشية السلطان تصطاد في الجنبات، أرهقها الطراد فقصدوا الوادي يستروحون ...

نكس الشعراء رؤوسهم وتنفّسوا الصّعداء وخلعوا سراويلهم المبلّلة لتجفّ فوق شجر "الطرفة" الذي يغطي أنحاء الوادي، المختنق برائحة الجيف المتحركة.

السّنون العجاف :

شدّوا الأحزمة .. إياكم وإرخاء البطون، كتلة شحم واحدة تزيد بقليل عن مقررات "المراسيم" جرم يعاقب عليه القانون .. زمن القحط قد هدرت أمواجه الكالحة ولا نفط بعد اليوم.

وأُعلن النفير في بلاد ما بين "**الحقلين الأسودين**" طلبا لمشورة أرباب الخبرة والبصر السديد .. وجاءت كوكباتهم تترى ..

عيون زرقاء:

السمة الغالبة على أعضاء الوفد الذي زار مملكة مابين "**الحقلين الأسودين**"، هي عيونهم الزرقاء وشعورهم الصفراء .. أناقتهم فاقت كلّ الخيالات، وكلماتهم المطاطية الهلامية، شوّشت أفكار الناس وملأتها ريبة، لكنهم لم يفقدوا فيهم اليقين لاسيما وقد أكد ذلك الكبراء والوجهاء والعارفون.

طفل وحيد صرخ فيهم وهو لم يتجاوز العاشرة:

اذهبوا يا ذوي رؤوس الخنازير .. النّفط ما عاد يجري تحت الأقدام، أرضنا استعادت نضارتها كيوم كانت بكرا قبل القار المشؤوم ...

قال أصلع رأسه يشبه ذيل حمار طويل يمتد إلى ما وراء البحار:

– لا تلتفتوا إلى سخافات طفل مغرور ... وهلمّوا لنأكل من العجل السّمين.

قال قائلهم: إنّ شحمه ذهبي اللّون كأنّه من تبر مكنون... أهو صنع يديك يا سامري قومه ؟

ضحك الأصلع ملء الأشداق فاهتز كرشه الضخم وقال:

- أموت في عشق عيونكم الزرقاء يا أهل مغرب الشمس اللّطفاء.

وفي جلسة مغلقة تم كل شيء، بيعت الأرض والماء والهواء وقبض الثمن البخس باليمين، ليدفع بالشمال في ليال حمراء، الماء فيها له رائحة الغسلين والدم الفائر في العروق ينضح صارخا " ويلك يا هابيل ويلك يا هابيل ماذا صنعت بأخيك ولا غربان في الأفق تستر السوءات ..؟ "

مرت سيّارة بنبع القار الأخير وأسروا ما فيه بضاعة مزجاة وما من "عزيز" يحضن الطفل اليتيم أسمر الشفاه، الذي صرخ ملء صدره الموجوع:

- هذا القار جلبابنا الأخير .. هذا القار جلبابنا الأخير .. بل هو غشاوة انزاحت عن العيون، فبصرنا اليوم حديد.

الانبعاث... !

فتح عينيه بجهد جهيد.. وكأنما أغرقتا في بحر من الملح.. لا جدوى، الظلام مطبق .. حاول الحركة ليتحسّس المكان فوجد نفسه مشلولا كلية لا يقوى على أدنى حركة ..

– ربّاه ما الذي يحدث ...؟ أهو كابوس مزعج مثل غيره من الكوابيس التي لازمته طوال عشرين عاما متطاولة.. ؟

– يبدو أنّ الأمر مختلف هذه المرة تماما ... أرهف سمعه علّه يلتقط نبسة صوت أو حفيف حركة تشير إلى شيء ما، أو تدلّ على زمن أو مكان أو كائن حي... لا جدوى مرة أخرى فالصّمت كامل، فهو أشبه ما يكون في غرفة مصمتة الجدران والسّقف، وبلا أبواب أو نوافذ .. أهي فعلا غرفة مصمتة أو .. أو قبر..؟

يا للهول.. إنه قبر فعلا فلا يمكن لشيء أن يكون مثل هذا المكان سوى القبر.. رباه هل أنا ميت..؟

أم مقبور حي أنا..؟

رعب هائل يجتاح كل ذرة في خلاياه .. صرخة عارمة تنبعث من أعماق صدره .. ولكن لم يسمع لها أي صدى.. وغاب بعدها عن الوعي لفترة من الزّمن الذي لم يعد هناك أي مؤشر يدلّ عليه.

ودبّت الحياة في جسده من جديد، ها هو ذا يفتح عينيه بصعوبة ولكن يفتحهما على فضاء رحب وضياء باهر يمطر المكان، وهاهي ذي أوصاله بدأت تتحرك وتسري فيها بقايا دماء... لكن ما هذا الصّهد الذي يصهر جسده ويجعله يتلظّى من الحر ..

وقف على قدميه بعد لأي ومعاناة شديدة، أرسل بصره يمسح الأفق الممتد في غير انتهاء.. تتكرّر الصورة بشكل مقلوب: لاشيء غير الضّوء الباهر ورمال بيضاء منبسطة بغير معالم أو إشارات دالة على اتجاه؛ أي اتجاه.. إنّه التشابه الأبيض الذي يشبه إلى حد ما التشابه الأسود؛ الذي كان في القبر.. القبر الآن يتسع إلى غير انتهاء حتى ما عاد له ابتداء.

أراد أن يخطو إلى الأمام أو إلى الخلف أو يمنة أو يسرة، لم يستطع الاهتداء إلى الاختيار السّديد ما الذي يدفعه إلى المضي أمامه.. لا معالم هنالك ولا

أثرا، لا حجرا ولا شجرا .. وخلفه لا يختلف كثيرا أو بالأحرى لا يختلف نهائيا عن أمامه، ولاعن يمينه أو يساره في شيء.. ليس سوى شمس لاهبة ترسل فوق رأسه دفقا من الحمم السرابية... عجز تماما عن الحركة، ليس لأنّ أطرافه مشلولة ولكن لأنه عاجز عن الاختيار.. لقد خال نفسه في غرفة كلها مغناطيس وهو كتلة من الحديد وضعت في المركز بدقة متناهية، فكل عوامل الجذب متساوية أو بمعنى أدق منعدمة، إنّه أشبه شيء بالموت والعيون مفتوحة. وفجأة اهتدى إلى مخرج اضطراري فانغمس في لجج بحر الذاكرة المتلاطمة الأمواج.

وجاءته الصور تترى على خير ما يحبّ، وهو ما يزال مسمّرا في مكان ما تحت فيض اللهب الجارف.

رجع إليه البصر خاسئا وهو حسير .. زادت دهشته عندما اكتشف أنه عار تماما، إذًا فقد استيقظ كيوم ولدته أمه .. لا سربال يقيه لظى هذا الحر اللافح ولا حتى ظل شجرة أو جدار .. لا ماء لا نسيم إنها بوتقة مستعرة بحجم الأرض كلها..لم يتزحزح من مكانه قيد أنملة، تصلّب فوق الأرض الرملية المتأججة، مثل نخلة عجفاء في قاع صفصف رهيب فكر هنيهة:

ترى ما الذي سيصيبه أكثر من الموت وهو كما يبدو قد مات ثم بعث من جديد..؟

طفت هذه الكلمة الرهيبة إلى ذهنه المكدود "البعث" أحقا هذا هو يوم البعث..؟ ترى ما الأفتك من الموت، وجاءه الجواب المزلزل من أعماقه:

– العذاب الأبدي.. العذاب الأبدي، وانفتحت عيناه ورأى نور الفجر يتبلج من خلال النافذة قرمزية الستائر، فأزاح الغطاء عن جسده المتصبّب عرقا.. وأخذ نفسا عميقا كأنما يريد أن يسحب كل هواء الأرض.. وتمتم:

– الحمد لله مازال في العمر بقية ...

ما أنا بقارئ..

توطئة:

" أنا توأم الشمس

بغير انتهاء

ولي ضفتان: مساء

المداد وصبح الدفاتر".

أحمد مطر.

وحيكم المشفر طلاسم لا تعيها ذاكرتي الكليلة... أبجديتي عاقر إزاء وشوشاتكم في ظلام الليالي الباردة.. ذهني امّحت منه كل إشارات الاستقبال والتقبّل.

الضوء الكشّاف الذي يفتت شبكية عيوني المبهورة لن يُلغيَ الظلام الميّت الذي يلوح من عيونكم الهلامية – ماذا أقرأ ..؟ كتابكم سفر بدائي مسطور بلغة منقرضة.

– أقرأ...؟ ما أنا بقارئ..

وتأخذني السّياط وأعقاب البنادق، وجلدي يصير مطفأة لدخيناتكم الكوبية الفاخرة..آه أيها الإحساس الحقير.. لماذا توصلني بلغة هؤلاء الحقراء..؟ لا أريد أن أتعلّم حرفا واحدا مما يقولون.. مُت أيها الإحساس إلى حين بعث جديد؛ لا أرى فيه وجوها هلامية تسطو على أهل الأرض وتصادر الحناجر المبينة، لتغرس في مكانها لغة ميتة لا يفهمها الأحياء من البشر.

يئس السوط من تطويع جلدي المصفح... أبعدْ عني الضوء الكشاف لكي أستبين دربي بعض الوقت، دربي الطويل المتّحد بصرخات المضطهدين في عالم تسكنه كائنات خرافية تدعى "بشرا " ...

– يا ويحي.. ! ما أزيف هذه الكلمة الغريبة في عالم لا يعرفها..

صوت مزمجر يبحث عن بوابة أعماقي في مكر، هو عجينة من التخويف والأغراء:

– لك الآن مهلة للتروّي وفسحة للراحة تقرر فيها على أي الدروب تسير؛ درب شمسك المحلولك أو ظلمتنا فاتنة الأضواء، إما أن تأكل العلقم

إلى الأبد نظير أحلام سخيفة أو تلعق الشهد بكلمات يسيرة تمحو بها ماضيك العنيد..

ومضى ثقيل الخطو ليوصد خلفه الباب الحديدي الأسود ويذرني مع ظلمة الزنزانة وأحزاني والجسد المرتجف ألما وبردا وجوعا ممضّا. لم أدر ساعتها أكنت بين اليقظة والنوم أم كنت في غيبوبة طويلة ومؤرّقة، وطفت من أعماق اللاشعور ذكريات قريبة .. قريبة جدا كنت أظنّها زالت تماما من ساحة ذهني المنهار:

ها أنا ذا خلف مكتبي بمقر جريدة " النور الساطع " ومن حولي ثلة من الصحفيين والكتاب الشباب الذين اتقدوا حيوية وفاروا حماسة...

خرجت الكلمات من شفتي مثل الشظايا المتلظية وأنا أحلّل الواقع المرير الذي يحياه المجتمع وأعرّي أصحاب الأيدي الخفية التي تخنق أنفاس الأبرياء والمسحوقين في ظلمات الليل الموحشة وأشير بشكل دقيق ومركز إلى ذوي الكروش المنتفخة والرؤوس الصلعاء ...

وما كدت أنهي كلامي حتى رأيت العيون القلقة متعلّقة بشفتي اللّتين صممتا منذ لحظة كأنما تحفزانني على المزيد، غير أني أحجمت وأشرت

بيدي أن انطلقوا إلى الميدان لتعيشوا حقيقة الواقع المر وتفضحوا ألاعيب مصاصي الدماء.. وناهبي ثروات الفقراء والمعدمين...

وأخذت المطبعة الصغيرة والبسيطة لجريدة "النور الساطع" تعمل بشكل مكثف ومستمر.. وتفاعل الناس مع ما نكتبه وتهاطلت علينا رسائل الإعجاب والتأييد، ورسائل التهديد أيضا، كانت أول رسالة وصلتنا من هذا النوع بيضاء لا شية فيها سوى حبل مشنقة حمراء...

ثم أردفتها مكالمات مجهولة ملخصها كلمتان اثنتان:

" الموت للنور الساطع " ..

أبلغت بكلّ شيء عن الرسائل التي تتهددنا للشباب من حولي لكنهم استقبلوا كل ذلك بقهقهات ساخرة، وكلمات غير مبالية.. وبتحدٍ مثير.

وكان عليّ أن أكون قدوة وأصمد في وجه العاصفة.. غير أنّ العاصفة طال أمدها إلى حدّ لا يحتمل بل وتحوّلت إلى إعصار كاسح عصف بالأنامل الغضّة فتراجعت عن عشقها في ممارسة البحث عن " شمس منتصف الليل الشتوي "..

وكان لابد لي أن أصمد وحيدا في وجه الإعصار...

. . . .

بدأت أستعيد وعيي شيئا فشيئا .. حلقي جاف متصلب مثل الخشب المنخور، وعيناي متورمتان أحسّهما كتلتين ملتهبتين، أزحف نحو زاوية الزنزانة كأني أهرب من شبح رهيب يقترب مني وينوي اختطاف روحي من جسدي النحيل المتداعي، رأسي جبلٌ متهاو لا تحمله رقبتي الواهنة.. أسلمته كرة أخرى للأرض الصّلدة الباردة.

خطر لي أن أستسلم؛ ألقي بسلاحي الوحيد الذي لا أملك غيره وصبر متأصل في كينونتي، الصبر.. إنها كلمة قوية جبارة تفلّ الحديد وتسحق أحدَّ الأسلحة وأشدّها فتكا.. لكنها تستلزم تضحيات ضخمة وآلام هائلة.. فلمَ لا أنسحب بسلام وأعيش ضمن القافلة الكبرى التي تسير بصمت دون التفات إلى الوراء أو تطلع إلى الأمام.. فكلا الأمرين دونه حز الرقاب..

أطفالي ينتظرونني بعيون دامعة، زوجتي يكاد يفلقها الألم ويقصم ظهرها التوجع المرير، شوقي إلى الأصدقاء والخلّان عارم.. وإلى جلسة تحت

الشمس الدافئة ترخي أعصابي المشدودة وتنعش جسدي المضعضع ..
لست الذي سوف يغيّر مسار الكون، ويقلب صفحة التاريخ البشعة، أنا مجرد رقم بسيط في معادلة بشرية شديدة التعقيد؛ لن أقو على تفكيك رموزها أو تغيير دلالاتها المطلقة.

وانتابتني رعدة خفيفة ليس لها علاقة بألم الجسد، إنها نتيجة رجة عظيمة داخل الروح القلقة..

انفتح الباب فجأة فاندفقت موجة من الضوء السّاطع؛ أعشت بصري.. ولم أسترجع قدرتي على رؤية الأشياء من حولي إلا بعد مدة طويلة نسبيا... انكشف لي الباب عن شخص بدا في كامل أناقته، وتبعه رجلان يحملان طاولة وكرسيين، وبعدما وُضعت الطاولة جلس الرجل الأنيق على أحد الكرسيين، ودعاهما لمساعدتي على الجلوس على الكرسي الثاني، وبصعوبة بالغة تماسكت فوق الكرسي، ومددت مرفقي على الطاولة من شدة التعب والإرهاق، فبادرني:

- يبدو أنّك أحسن الآن...

- ....

– حسن لا بدّ من الانتهاء من هذه المهزلة أنت رجل مثقف وذكي، دعك من العناد والمكابرة.. لن توقف وحدك دوران الطاحونة الجبارة، عش حياتك واستمتع بمواهبك الفذة واكتب في أي شيء إلا ما يزعج الآخرين..

انكفأت على ذاتي وغصت في دوامة من التفكير السريع والخاطف:

" الطاحونة تدور .. جبارة .. جبارة ..أنا رقم بسيط في المعادلة، أمارس مواهبي الفذة في مجالات محايدة لا تزعج أحدا.. وأنت بالطبع لا يمكنك أن توقف دوران الطاحونة...

إذًا فلتذهب مواهبي إلى الجحيم.. أين كلماتي الصادية أمام تلاميذي في الجريدة.. إنّ نظراتهم المعجبة وعيونهم المتطلعة في إكبار وإجلال؛ تحاصرني.. تسدّ عليّ مسارب القرار.. آه ما أمرّك أيها الصبر..

– كن عاقلا أرحنا واسترح ، كلمات قليلة أمليها عليك، تخطها على هذه الورقة البيضاء تنهي كل المشكلة وترجع إلى دنيا الناس بسلام.. أكتب.. أكتب أيها الرقم البسيط في المعادلة المعقدة..

هزتني عبارته الأخيرة :

" ترى أيكون قد سبر غوري وقرأ أفكاري .." ؟

وفي لحظة تجلّ خاطف وباهر؛ أدركت السّر.. وانتفضت قائما برغم الآلام المبرحة، وصرخت فيه جهد ما أطاقته حنجرتي الجافة والمتقرّحة:

- ما أنا بقارئ .. ما أنا بقارئ أيّها الطاحونة الجبارة .. لغتك طلسم سخيف لا يعانق روحي الطلقة.. افعلوا بالجسد ما شئتم.. فلن أخط حرفا واحدا من قذاراتكم ..

ما أنا بقارئ.. ما أنا بقارئ.

" من مذكرات كوسوفي في

ليلة شتائية حمراء.."

مخاض عاقر...

صرير المفتاح في قفل الباب أيقضها من غفوتها، قامت مهرولة نحو البهو.. انفتح الباب بهدوء وأطل من خلفه بوجهه الشاحب، مقطّب الجبين، مزموم الشفتين، مثقل الكاهل بهم السنين وتعاقب الأيام الصامتة التي انتظر فيها صرخة مولود تغير من هذا الجو الراكد، الذي يجثم على أنفاسه فيكاد يقطعها، ألقى تحيته بفتور، ردّت عليه بابتسامة عريضة شحنت فيها كل ما لديها من حنان وحرارة عاطفة.

التفتّ خلفه وسحبت المعطف بلمسات حانية من على كتفيه، حاول أن يصطنع الفرح .. رسم ابتسامة مقتضبة على شفتيه المنكمشتين، أدركت ما يعانيه، بل هي تدرك ذلك منذ ردح من الزمن.. ضميرها يعذبها، يأتيها كالأسواط الملتهبة صوتا رهيبا:

- أيتها العاقر لمَ تمسكين بتلابيبه ؟ دعيه يتحرر يخرج إلى دائرة النور، يسمع لثغة صغير يخرج من صلبه..

تلملم ريقها الناضب من بين تجاويف فمها، تزدرده بمرارة تحاول تبرئة نفسها أمام ضميرها:

- وما ذنبي أنا وما حيلتي..؟ لقد قلت له طلقني فأنت في حل منّي وتزوج غيري فأبى .. وألححت عليه في ذلك مرارا فصدّني بشراسة وأقسم لي أنه سعيد بحياتنا سويا ..

ويعاودها صوت ضميرها كالبركان اللاهب يخترق كل مسامات ذاتها:

- أنت على يقين أنه يحبّك ولن يطلقك أبدا مهما كلفه ذلك غاليا.. فاستسلم لمصيره وهو يتجرع مرارة الحرمان، يوما بعد يوم إلى أن بدا الشيب في عارضيه ووخط ناصية رأسه، ثم هاهو يزداد حزنا وبؤسا كلما انصرمت السنوات العجاف من عمريكما.

جاءها صوته العذب برنته الحزينة ليوقظها من غمرة الانصهار الداخلي:

- ما بك شاردة ؟ هل تشكين من شيء ؟

- لا.. لا يا عزيزي لاشيء.

- بلى هناك أمر يعنّيك، لقد ظللت فترة غير وجيزة ساهمة لا تسمعين صوتي وأنا أحادثك.

شعرت أنه لا مجال للتكتّم فعيناه الثاقبتان مثل لؤلؤتين تشعّ منهما قوة شخصيّته، وذكائه الحاد، تمنعانها من التهرب والمراوغة، فلا بدّ أن تلقي له بحملها الثقيل.

- أصارحك القول أنني أتألم كثيرا لحياتنا البائسة وبيتنا الخالي من ضجيج الأطفال ومشاغباتهم الحلوة أكاد لا أنام الليل، خناجر حادة تمزق أحشائي وأحسّ أنني ظلمتك معي وقسوت عليك كثيرا إنني أنانية ..أنانية.. وانفجرت باكية ..

مدّ يده بمنديل يكفكف به دمعها وهو يواسيها في إشفاق:

- لا عليك هذا أمر الله .. ويكفي أننا معا، ووجودك إلى جنبي يعدل الدنيا وما حوت.

- ولكن ما ذنبـ ...

ووضع يده على فمها معاتبا:

- سامحك الله ... لما تعذبين نفسك، كم مرة أخبرتك أنني سعيد معك ويكفيني ذلك.. فرجاء لا تفتحي الموضوع مرة أخرى.

تسربلت بالصمت ترضية له وفي أعماقها صوت داوٍ يرجّها رجّا:

- أيتها العاقر لما تمسكين بتلابيبه ؟

وطفت إلى ذاكرتها أحداث ليلة البارحة عندما غصّت دارهما بأبناء أخت زوجها السبعة، لقد كانت نظراته إليهم جائعة كاد يلتهمهم واحدا واحدا، فلم يفتر من مداعبة هذا وتقبيل ذلك لاسيما "عبير" تلك البرعمة الغضّة، إنه متعلقٌ بها للغاية إذ ملأ حجرها حلوى وجيوبها نقودا، ولم يشأ تركها تذهب مع أبويها وإخوتها بل حاول إبقاءها لولا أنّ أباها تدخل معتذرا إليه بأنها لا بدّ أن تستيقظ من الغد مبكرة لتذهب مع إخوتها إلى المدرسة.. فأرسل يديها الطريتين بعد أن طبع على جبينها قبلة حارة .. وكادت تطفر من عينيه الدّموع لولا أن غالبها بكبرياء متعجرف.

كانت تنظر إليه بمرارة ونار من الألم تتقد بداخلها. ورنت في أذنيها كلمات أخت زوجها القاسية:

- ماذا تنتظران ..؟ أنجبا لكما طفلا أو طفلين يؤانسكما في وحدتكما .

وأجابها أخوها وهو مغضٍ في حزن عميق:

- كل شيء بيد الله ... كل شيء بيد الله.

وجاءها صوته ثانية لينقذها من ضميرها ولو للحظات قصيرة:

- أنا جائع .. ماذا طبخت لنا اليوم ؟

- ما تحبّه وتؤثره .. فورا سأعدّ المائدة ..

في تلك الليلة عصفت برأسها خواطر وشجون جمة،لم يقو قلبها المرهف على حبسها ولم تنم إلا في ساعة متأخرة وكلما حاولت تسليم جفونها للكرى تبدّى لها شبح أخت زوجها يصرخ فيها:

- أيتها العاقر.. لما تمسكين بتلابيبه ؟

وما إن فتح زوجها عينيه مع نسمات الفجر الأولى حتى ألفاها تجلس القرفصاء على السرير، وهي تحدّق فيه بحنان وعطف فياض فسألها برقة:

- ألم تنامي ...؟

لم تسمع سؤاله كانت مركزة كل جوارحها في القرار الذي توصلت إليه، فخاطبته بلهجة قوية وإصرار حاسم:

- لا بدّ أن تتزوج ..

فرك عينيه حتى ينفض عنهما أثر النعاس ثم سألها في ذهول:

- ماذا تقولين ؟

هو ما سمعت لا بد أن تتزوج وأنا التي سأخطب لك عروسك بنفسي، فلا بدّ من مصباح ينير بيتنا المظلم..لا بد من عصفور يملأه علينا نغمات صادية تكسر بوتقة الصمت الخانق التي تجثم على صدورنا وتحوّل حياتنا إلى جحيم بارد .. بارد.

أمسك كفيها بين راحتيه وأجابها في إغضاء:

- أنت وما تريدين.. أنت وما تريدين يا عزيزتي.

أحسّت بنسمات لطيفة تداعب جفونها.. وفي القلب جرح بدأ يندمل.

الامتحان العسير...

تسلّل من فراشه قبيل صلاة الفجر بحذر شديد؛ فرارا من زوجته التي ما تفتأ تكدّر عليه يومه وتقلق راحته، كلما قبع في البيت طلبا للهدوء والسّكينة وسار في دروب المدينة بخطىً مشتتة مترقبا مطلع النهار وتباشير النور.

كلماتها المؤنّبة ترنّ في أذنيه:

- الرجال هناك في القمم يصنعون التاريخ، وأنت هنا مع الخوالف تحصي عدد الذباب الذي تقيأ على أنفك المنطمر في وحل الجبن والوهن.

نظراتها المزدرية تطارده مثل الأفعى الرقطاء أينما اتجه... ألفى نفسه مساق الخطى بغير إرادة منه نحو صاحب الأمس؛ الشيخ العنيد الذي لم يبل ريقه بكلمة واحدة تطفىء نار الذلة التي تلتهم كيانه... وقف عند رأسه والقنوط يلفه من رأسه إلى أخمص قدميه، هو اليوم أكثر إصرارا للوصول

إلى غايته، فقط فليفتح الشيخ فاه بكلمة واحدة.. كلمة واحدة كفيلة بأن تنتشله من وهدة العار والمذلة.

رمقه الشيخ بنظرة شزراء وبادره بلهجة عنيفة محذرة:

- أهو أنت ثانية.. ماذا تبغي ؟ اذهب وإلّا أبلغت الشرطة بأمرك فتسوء عاقبتك .

- لن أبرح حتى تدلّني على بغيتي وتحقّق لي رغبتي.

- لا شكّ أنك مجنون ابتلاني الله بك أو صاحب دسيسة تريد أذاي، قلت لك مرارا أنا لا أعرف هؤلاء الذين تتحدث عنهم ولا علاقة لي بهم اذهب راشدا.

- ما حيلتي وقد دللت عليك وقيل لي أنك الوحيد القادر على تمكيني من الصعود إلى الجبل، أرجوك سيدي لا تحرمني شرف الالتحاق بالثورة.

- أغرب عن وجهي ولا تعاود طرق بابي مرة أخرى وإلا هشمت رأسك بعصاي هذه ...

ولوّح له بها مهددا، فتخاذل عنه إلى الوراء ثم بعد تردد استدبره وولّى راجعا إلى بيته والأسى يملأ نفسه ويعبث بمشاعره المتأجّجة.

ودخل داره فألفى زوجته متربّعة على حصير بالٍ؛ تآكلت أطرافه وظهرت ثقوب واسعة في وسطه، فألقى السّلام بفتور وهو مطأطأ الرأس متحاشيا عينيها اللّتان كانتا تقذفانه بشرر من الازدراء.

ثم جلس على الأرض قريبا منها دون أن يستقبلها بوجهه المتجهّم، وساد صمت كئيب فشعر كأنّه داخل قبر معتم غشيه التراب من كل جانب فأراد أن يصرخ فيكسر وطأة السّكون بأي شيء، حتى ولو أدّى ذلك إلى نشوب الخصام مرة أخرى بينهما، ثم قال فجأة وبصوت متهدّج:

– صدّقيني يا هذه فلقد ذهبت إليه مرارا فاستعصم بالصمت، وما باح لي بشيء ولا فتح باب الأمل كأنما قُدّ قلبه من صخر، وإني أخشى أننا أخطأنا الرجل المقصود..

– هذا محال.. إنّه هو بلا ريب ولكنه خَوَرك وجبنك يهولان لك الموقف، ويتركانك مسخرة بين الرجال، فتقبع مع النساء تتملّى الدّفء والسكينة، بينما الرجال في قمم الجبال الشامخة يصارعون الموت في كل لحظة.

أراد أن يقوم فيلطمها على وجهها أو يهشم رأسها حنقا وغيضا، لكنه ما تزحزح من مكانه، فقد شعر بصدق بعض ما وصمته به من الونى والوهن.

ومرّ يومه ذاك بطيئا ثقيلا كأنّه يتمطّط ويتمدّد ليزداد طولا وعرضا. ثم أقبل الليل بأشجانه المبرّحات وخواطره الممضّات وكان الليل أكثر بطأ وأشد وطأة فما غمض له جفن ولا سكن عظم، بل أحسّ كمثل الحسك يعلو فراشه ويخزه وخزا حادا متواصلا.

وانطلق مع تباشير صبحه الأولى يعدو غير مولٍ على شيء، حتى انتهى به الأمر إلى الشيخ الذي يأبى أن يدلّه على طريق الخلاص والانعتاق، وظنّ أنّه وصل قبله إلى مكانه المعتاد إلّا أنه فوجئ به متربعا على سجادة بسيطة آفلة الألوان، كأنّه بات ينتظره طوال الليل.

- اسمعني جيدا يا شيخ فإني والله عازم هذه المرة عزمة ما تنفك عني حتى تدلني على مبتغاي، أو لا أبرح إلا قاتلا أو مقتولا..

وأنزل الشيخ نظارته عن عينيه قليلا إلى أرنبة أنفه، ثم تأمله مليا وصعّد فيه نظراته، فالتقت عيناهما ... وأشار إليه بيده أن اجلس ... فجلس وقد بدأ قلبه يرفرف...

- هل أنت واع بما ستقدم عليه ؟

- كلّ الوعي.

- ألا ترهب الموت ..؟

- أبدا ...

- حقّا ...؟

فاضطرب قليلا ثم أردف:

- أرهبه ولكن شوقي للجهاد وحبي لأرضي ووطني أقوى وأعظم من كل خوف قد يخامر بشرا من الناس.

- حسن ارجع إلى بيتك الآن وعد غدا في مثل هذا الوقت.

لم يعقب بكلمة واحدة إنما نهض مجبورا مثل عريس ستزف إليه عروسه بعد حين، وقطع الطريق إلى بيته في لمح البصر.. دفع الباب بكلتا يديه وصرخ:

– أبشري يا فاطمة لن تخفضي رأسك بعد اليوم أمام صويحباتك ولن تتغامز عليك جاراتك، ولن يُعيِّر أبناءَنا أندادُهم في "الزاوية" بأنّ أباهم خائن متخاذل ...

لم تردّ عليه بل أخذت عودا من الأرض وراحت تثير جمرات دفينة في رماد"الكانون"... عرف ما تعانيه، صمت لحظة ثم قال:

– حسن سوف لن أترككم سأتعهدكم بالزيارة من حين لآخر..

قالت بصوت خفيض متكسر:

– و " العسكر"..؟

– الله يطمس عيونهم.. يحسن بك أن تبثي في الناس أنني هاجرت إلى فرنسا.

في الغد وهو يرتشف قهوته أمام الموقد المتأجّج وزوجته تلتّ عجينها في تراخ شديد؛ قالت له بمودّة وحنان:

سامحني لقد كنت قاسية عليك.. إنما أردت أن ...

ووضع راحته على فمها وهو يقول:

- لا تكملي إني أفهمك تماما.. وأعرف مكاني في قلبك إنها خمس عشرة سنة من العشرة. ثم نهض برزانة ودون أن يلتفت أضاف:

- يرعاك الله أنت والصبية.. يرعاك الله.

ولم يشأ أن يغلق الباب خلفه.

عندما وصل إلى مجلس الشيخ جلس حذوه دون أن ينبس.

قال الشيخ:

- هل ندمت ؟

- كلا.

- ألا تريد أن تتراجع ..؟

- مطلقا.

- خذ .

وناوله شيئا ملفوفا في منديل أخضر، مدّ يده دون تردد وجد المنديل ثقيلا، يبدو أنه لُفّ على شيء من المعدن فهمّ بفتحه ولكن الشيخ انتهره بشدة:

- ويلك لا تفعل حتى تبلغ غايتك.

- وما غايتي ..؟

- السوق.. على الساعة العاشرة تماما لا تتقدم ولا تتأخر، تدخل محل اليهودي "موشيه "فتفرغ في صدره كل الذخيرة ثم تهرب.

أراد أن يستوضح أكثر .. أشار إليه بيده أن قم.

قام دهشا تائها لا يدري ما سيفعله ولا ما سيحل به بعد ساعات، ضرب بخطاه في شوارع مختلفة من المدينة إلى أن أفضت به إلى السوق.

المكان يعج بالناس والصخب بلغ أوجه، ولاحت منه التفاتة فرأى مجموعة من رجال الدرك قابعة في إحدى الزوايا كأنما تترقب أمرا عظيما، فاستدار وولّاهم ظهره، فلمح شرطيين يطوفان بالباعة وآخرَ اقتعد كرسيا خشبيا وصبي لم يتجاوز العاشرة من عره يلمع له حذاءه.

اضطربت نفسه وارتعش فؤاده.. إنها مهمّة صعبة للغاية، هل يفرّ ويترك كلّ شيء؛ يستسلم للذّل والقهر وعيون الآخرين المؤنبة..؟

نظر في ساعته وجدها تقارب العاشرة تماما.

" أزفت السّاعة إما موت عزيز أو حياة كريمة.. "

واخترق كل المتسوّقين في تصميم حديدي.. وقف أمام واجهة محل اليهودي، أجال بصره في المكان من حوله لاحظ عيون الدرك والشرطة ترصده، أوشك أن يتراجع.. رفع بصره إلى السّماء ثم ولج المحلّ في تحدٍ عاصف، استقبله اليهودي بوجه عابس متجهم:

– ماذا تبتغي ؟

– حذاء من فضلك.

– أحدّ فيه بصره مليّا ثم قال بسخرية:

– حذاء لك أنت ؟

– أجل ..

هزّ اليهودي كتفيه في سخرية وتوغّل داخل المحلّ لحظات ثم عاد يحمل بين يديه زوجين من الأحذية الرخيصة..

اقترب منه أكثر.. سحب المسدس من المنديل وأفرغ في صدره الذخيرة كاملة ثم تفل عليه وهو يخور في بركة من دمه العفن:

– خنزير .. إلى جهنم وبئس المصير..

ولم ينتبه إلا وأيدٍ غليظة تمسك بتلابيبه وتطرحه أرضا، وركلات متعاقبة تنصبّ على جسمه بعنف وقسوة ثم سُحبت يداه إلى الخلف ووضعت فيهما الأغلال، وكذلك رجلاه وحُمل مثل الشاة بين أربعة من الدرك تحت وابل من الشتائم المقذعة بالفرنسية؛ ممزوجة ببعض الكلمات العربية المهينة وقذف في سيارة "جيب" ثم انطلقت به مثل الجواد الجامح..

تمر اللحظات بطيئة ثقيلة لا يرى فيها إلا أحذية رجال الدرك تنوش جسده.. يطول الطريق .. ترتفع سيارة " الجيب " وتنخفض، وتتوقف الركلات ينسحب الضجيج.. تتغير نكهة الهواء، نسمات رطبة مشبعة برائحة العرعار والشيح تتناهى إلى خياشيمه، يرفع رأسه بصعوبة، يحدق في رجال الدرك الذين يحوطونه، يندهش يفغر فاه وتتسع حدقتا عينيه..

ابتسامة ساخرة ترتسم على وجوههم، ينكبّ عليه أحدهم ويفكّ قيوده ويقولون له جميعا وبصوت واحد كأنّه الصّدى تردّده الجبال القريبة:

- مبروك لقد نجحت في الامتحان..

العقد الرابع...

وتفجؤني بصوتها الملائكي:

– أتدري! .. إنك ستدلف وشيكا إلى الواحدة والثلاثين ؟

– أجل سيكون ذلك يوم الجمعة القادم.

وتنبهت كل ذرة في كياني، وأحسست بمثل السفود ينغرز في بؤبؤ الفؤاد .. ما كنت من قبل أدري ما مر السنين! ولا أعر الأيام المتوثبات في تسارع مذهل أي اهتمام .. زهرة العمر تفوح ريّانة بعطرها الأريح ، والصّدر مفعم بنشوة الدهشة من الحياة بغرائبها الهاطلة مثل الطوفان الكاسح!

وطفا إلى ذهني خاطر مخيف وتمتمت بتوتر:

- لقد بدأ العدّ التنازلي ..

والتقطت آهتي بأذن مرهفة ورمقتني بنظرة ساخرة ثم قالت :

– أنت الآن في عنفوان شبابك! والشباب يمتد إلى ما بعد الأربعين أحيانا .

حدقت فيها بإمعان وأنا أردّد مذهولا:

لكلّ شيء إذا ما تمّ نقصان... أقصد أنه بدأ العدّ التنازلي لمرحلة الشباب؟!

– لا تتشاءم .

– لست متشائما وإنما أدهشني أن أسلخ من عمري ثلاثة عقود بهذه السرعة الجنونية .. والانعطافات الكبرى في حياة الإنسان تزلزله .

وصمتت لتتركني أعانق أحزاني وأرقب شبح الخوف الذي غشيني من كل ناحية وبدأ ينبش بأظافره المعقوفة في الأعماق!

وانداحت الأسئلة في ذهني قلقة :

"ترى هل حققت ذاتي ؟ هل أثبتّ وجودي كإنسان على ظهر هذه الكرة السابحة في الفلك الرهيب ؟"

وانبعث من الماضي صخب هائل قد ملأ أيامي من قبل :

هو ذا أنا طفل أمرح بين الحقول والسواقي الجاريات!

وفراشة تتراقص أمام ناظري، تستبيح شغفي المتدفق شلالا فضيا ...

وأكبو على ركبتي ..

فيتلقفني العشب الطري

أمّا حنونا تزرع السّلام في صدري

أغنية غجرية...!

وتتململ في الفراش وقد سرى خدر النوم في جسدها المندفن تحت الأغطيّة الدّافئة وتتأفف محتجّة :

أما زلت مستيقظا ؟..أطفئ النور!

وتنزلق يدي نحو الزّر في تراخ وبرود وأضغطه بامتعاض .

جلباب مدلهم من الظلمة يلفعني ..وتمرح الأشباح من حولي طليقة تستثير حواسي المرهفة، هي أشباح أليفة لدي رافقتني في سذاجة الطفولة، وأرقت ليالي في عنفوان المراهقة، وأرتني من مظاهر الطبيعة صورا كم قفّ لها شعر الرأس ورجف القلب! وعندما بدأت تتفتح عيناي على حقيقة الوجود، طردها منطق العقل وبديهيات العلم الجليّة إلى حين.. فربضت متوثبة تنتهز فرص الانقضاض الهالك في لحظة ضعف!

وجاءت غمرة الحياة المنكدرة ورهق المعيشة المضني، فكشرت تلك الأشباح عن نواجذها وتفلّتت من أغلالها وغدت تتربص لي بكل سبيل وها هي ذي توشوش في الظلام بمثل فحيح الأفاعي:

– سلخت من عمرك ثلاثة عقود ..مضى العمر ولن يعود ولك ورد لا محالة مورود ..هه ..هه ألا تشبع من هبوط وصعود ؟

ترى من يشبع من لذّات الحياة برغم مما يخالطها من مرارة ؟

إنها السّلافة المعتقة تسبي كل ضامىء لهفان!

وقمت أتسحب على أمشاط أصابعي ودلفت إلى غرفة المكتبة الضيّقة وتناولت من أحد الرفوف بعض القصص التي ملأت حيزا معتبرا من طفولتي الأولى :

"الراعي الشجاع" المغامرون الأذكياء، "رحلة السندباد"، " أصحاب الكهف" وألفيتني أتسامر مع توفيق الحكيم في رحلة النوم واليقظة بين دفتي

" أصحاب الكهف "بحثا عن السنين الضائعة في سبات عميق لم تغمض لها فيه جفون...!

على جناح السرعة..

حثّ خطاه مهرولا نحو المحطة مغالبا تقرّحات قدميه التي تسبب فيها الحذاء الجديد ما يزال الطريق ممتدا، والوقت يمضي مثل طاحونة عملاقة تسحق كل ما يوضع بين فكيها الرهيبين فتصيره غبارا تافها.

" الوقت... هذا الزئبق المعاند ما إن نعتقد أننا أمسكنا بناصيته حتى يتسرب من بين أيدينا في لزوجة فائقة وسرعة مذهلة، يقال أن العصر عصر السّرعة، ومن لم يدرك وقته لم يدرك حياته، ومنذ متى كان الإنسان يعيش في سكينة وهدوء منتظرا قدره المغالب ؟ فمنذ تفتحت عيناه على الوجود وهو يحاول أن يمسك بالزمن فلا يتقدم ولا يتأخر، بحثا عن الخلود ولكنه كان دائما يتعثر ويكبو فيدوسه الزمن غير عابئ بآهاته وأنّاته .."

أحسّ أنه قطع شوطا كبيرا من الطرق دون أن يشعر بمجهدة أو نصب لما طافت بذهنه هذه الأفكار وجعلته ينغمس في عالمه الفكري ويهمل أو ينسى الجسد وظناه إلى حين..

لاحت له المحطة عن بعد ، رمق ساعته بنظرة خاطفة:

– لم يبق على موعد العمل سوى نصف ساعة ، ومع شيء من الحظ سأصل في الوقت المناسب ..

وتدارك بصوت خافت:

الحظ وأين هو هذا الطائر الأسطوري ليترنم على أوتار أيامي فأدرك غاياتي في الحياة ؟.. أو بعض هذه الغايات على الأقل وتراءت له حافلة صغيرة تهم بالخروج من المحطة متثاقلة في سيرها كأنما أوقرت بهموم البشرية جمعاء وتريد نقلها إلى الضفة الأخرى من عالم النسيان.

" إنها تتجه إلى أريس ولكن ربما للوقت يمكن أن أستقلها وأنزل عند مفترق الطرق وأكمل المسافة الباقية إلى سيدي خليل مشيا على الأقدام، فإذا وصلت متأخرا قليلا فلا تثريب علي ".

وأشار بيده إلى السائق فتوقفت الحافلة وصعد إليها ثم اتخذ له مقعدا قرب السائق حذو الباب، ثم تنفس الصعداء وظن أنه سيطر على الزمن لأول مرة.

" عظيم جدا أنا الآن في الوقت المناسب .. عشر دقائق من المدينة إلى مفترق الطرق ثم عشرون دقيقة كافية لقطع المسافة الباقية سيرا على الأقدام وسحب جريدة من محفظته وراح يستعرض عناوينها ..

" اغتيال 16 تلميذا في بوينان " أخ .." مطالب مؤجلة واحتجاجات بالجملة " أووف " اغتيال عشرة مواطنين بعين الدفلة " واحسرتاه " 1700 مستفيد من السكن يقاضون رئيس المندوبية " بخ " تصريحات مسير سابق تكشف عن واقع خطير ".. أواه لا أظن أننا لا نسيطر على الزمن وحسب بل إن الزمن يسير في اتجاه ونحن نسير في الاتجاه المعاكس".

وببطء شديد وبعد بضعة أمتار توقفت الحافلة وصاح المحصل:

- من يريد شراء الخبز فينزل..

قال ذلك بعربية ممزوجة باللهجة الشاوية ، كان وجهه أحمر وشفتاه أشد احمرارا ولولا أنفه المدبب وبضع شعيرات تناثرت على ذقنه لخاله امرأة، شعر أن الوقت يتسرب من بين يديه ثانية وتساءل:

- ما لهؤلا ء الناس يقفون من الزمن وقفة الغريب من قوم جاءوا نحوه فجأة مهرولين ؟

وزعق المحرك زعقة هائلة ارتجت لها الحافلة وانتفض الركاب ، وظن أن الفرج قد جاء فقد انطلقت الحافلة من جديد إلا أن جعجعة المحرك العظيمة لم تدفع الحافلة إلا دفعا ضعيفا هينا فبلغت روحه الحلقوم وكاد يصرخ .. ينتفض يحتج على هذا السير السخيف لكنه أحجم ولاذ بالجريدة مرة أخرى يحاول أن ينسى مأساة الإنسان منذ بدء التاريخ ..

قرأ في الصفحة الثقافية :

" شهريار تقهره أنثى تسمى شهرزاد " فتساءل في أعماقه:

– أحقا قد قهرته فعلا ؟ ألم يمتصّ رحيق عمرها، في تسلية سخيفة الموت أشرف منها ؟

ألف ليلة وليلة من عمرها أمضتها في ثرثرة عقيمة، وتسلّل عمرها من بين يديها بلا غاية أو هدف عظيم، سوى أن تظلّ الحاكي المخلص والدائم الذي يُذهب أرق شهريار ويُهدي إليه أحلاما وردية.

الفهرس